حرمة البلجيك والعمران

ابنا في الكلام على البلجيك في مقتطف سبتمبر الماضي ان حيادها ضمنتهُ بروسيا (اي المانيا الآن) كما ضمنتهُ فرنسا وانكلترا وهولندا وروسيا وذلك سنة ١٨٣١ وسنة ١٨٣٩ . ثم ان المانيا وافقت على قرار مؤتمر لاهاي سنة ١٩٠٧ والمادة الاولى منهُ تقول ان البلدان المحايدة تُحفَظ حرمتها دائماً والمادة الثانية انهُ لا يجوز للدول المتحاربة ان تدخل بجنودها بلاداً محايدة او ترسل فيها ميرة وذخيرة وانهُ اذا دخلت جنود بلاداً محايدة وقاومها اهالي تلك البلاد لا تحسب مقاومتهم لها حرباً ولو قاوموها بالسلاح . ولما وقّعت المانيا هذا القرار ولم تعترض عليهِ ثبت للخاص والعام انها باقية على اعترافها بحياد البلجيك وانها لا تزال تفهم منهُ ما يفهمهُ سائر الدول

ومنذ سنتين (مايو ١٩١٣) نشرت جريدة المانية تتكلم بلسان الحكومة ان وزير الخارجية ووزير الحرب الالمانيين صرّحا في مجلس النواب الالماني في ٢٩ ابريل ١٩١٣ ان المانيا تحترم حياد البلجيك وانها لا تتغاضى عن ان حياد البلجيك قد ضمنتهُ الدول

وقد ادعى الجنرال برنهاردي الآن انهُ لما قرّ القرار على ضمانة حياد البلجيك لم تكن قد صارت بلاداً ذات مستعمرات واسعة فامتلاكها المستعمرات يدلُّ على انها خرجت من الحياد . لكن امتلاكها المستعمرات كان قبل ان صرّحت المانيا بانها تحافظ على حيادها فعلّة برنهاردي الآن تُعلَّل تخيلك لاسيما وانهُ بيّن في كتابهِ الاخير الذي موضوعهُ « كيف تُسيّر المانيا الحرب » ان لا بدَّ لها من ان تحارب فرنسا وروسيا وانكلترا وحدها ولا تعتمد على حليفتيها النمسا وايطاليا لانهما للدفاع لا للهجوم . وانهُ يجب عليها ان تهاجم فرنسا وروسيا وانكلترا وتتغلب عليهن وتنتزع منهنَّ البلدان الواسعة لشعبها المتزايد ولبضائعها المتكاثرة وانهُ لا بدَّ لها من مهاجمة فرنسا وانكلترا من البلجيك ومن هولندا لئلاَّ تسبقاها وتهاجماها منهما . والفوز في الحروب للبادئ

وقد وصلت الى فرنسا صورة الخطة الحربية التي وُضعت لسير الجنود الالمانية . والظاهر انها وضعت بارشاد الجنرال برنهاردي ان لم يكن هو نفسهُ الواضع لها لانها تنطبق على آرائهِ تماماً وقد وضعها لما صرّح وزير الحربية الالمانية في مجلس النواب الالماني التصريح المذكور آنفاً . وقد نشر السر توماس بركلي خلاصتها في مجلة القرن التاسع عشر فرأينا ان نقتطف منها الفقرات التالية

« تدل الدلائل كلها على اننا يجب ان لا نتهاون في الزحف على البلجيك ولكمبرج حتى نحتل ضفة نهر الموز اليمنى فنستولي على سكك الحديد ونوقع الاضطراب في حكومة البلجيك فيتعذر عليها تعبئة جانب كبير من جنودها وتضطر ان ترضى بما حدث لقاء شيء نعدها به من الارض او المال

« ولذلك يجب ان ندخل دوقية لكمبرج ولكمبرج البلجيكية في اليوم الثالث من زحفنا وفي ذلك اليوم عينه يقدم وكيلنا في بركسل الى حكومة البلجيك رقيماً يعتذر فيه بان الضرورة الجأتنا الى استعمال سكك الحديد التي الى الجنوب من نهر الموز واننا مستعدون ان نجزي البلجيك جزاء حسناً لقاء عدم اعتراضها علينا سواء كان ذلك عن رضى منها او عن غير رضى

« ولم يجر المرشال مولتكي على هذه الخطة سنة ١٨٧٠ بل اقتصر على جمع جنوده بين لاندو وتوير لانها كانت ٤٠٠٠٠٠ مقاتل لاغير اما الآن فجنودنا التي تدخل بها فرنسا اربعة اضعاف ذلك فلا يمكننا ان نحشر مليوناً منها في خط طوله ٣٠٠ كيلو متر فقط اي بين بلفور ودوقية لكمبرج لاسيما وان نصف هذا الخط لا يصلح لحركات الجنود ولذلك لا بدَّ لنا من دخول فرنسا من غير التخوم الفاصلة بيننا وبينها وهذا شأنها هي ايضاً فيبقى ان ندخلها من سويسرا او من بلجكا فاذا قصدنا دخولها من سويسرا وقف الجيش السويسري على بسرتنا فاضطررنا ان نقاومهُ بجانب كبير من جيشنا . واصعب من ذلك ان البلاد هناك خالية من سكك الحديد الصالحة لنقل مهماتنا وبعيدة عن قلب فرنسا . ولا خوف من ان فرنسا تهاجمنا من تلك الجهة لهذه الاسباب عينها ولذلك نضطر ان نطيل خط الهجوم على فرنسا شمالاً ونهاجمها من دوقية لكمبرج ولكمبرج البلجيكية ونخرق حياد هاتين البلادين واذا كان خرق المعاهدات يبيحنا النصر فلا اسف عليها لان النصر يُصلح كل خلل . وزد على ذلك اننا قائمون بهذه الحرب ضد كل الدول الكبرى فهل يهمنا بعد ذلك محاربة دولة صغيرة مثل البلجيك لاننا خرقنا حيادها . ومقاومة البلجيك لجناحنا الايمن لا تذكر في جنب مقاومة سويسرا لجناحنا الايسر . وفي لكمبرج كثير من سكك الحديد وبعضها يديرهُ رجال من الالمان فيمكننا الاعتماد عليها ومن هناك تدخل جنودنا تخوم فرنسا في اقرب مكان من باريس التي هي قلب فرنسا

« وليس من غرضنا ان نجتاح بلجكا بل ان تدخل جيوشنا منها وتمتد الى ما وراء ميسرة الجيش الفرنسوي ويكفي لذلك ان تحتل ضفة نهر الموز اليمنى بين سيفه ولياج

« ومن المحتمل ان تجمع حكومة البلجيك جنودها في انفرس او تتركها على ضفة الموز اليسرى في حالة الدفاع ولو لم نعدها بان نضيف اليها بلاداً جديدة . وحينئذٍ لا تدعو الحال الى محاربتها لان وقوفها كذلك في مصلحتنا ولكن يجب ان لا ننتظر امراً مثل هذا بل نبني حكمنا على ان البلجيك تحاربنا وعدد جيشها المنظم مع حامية لياج وناموز وانفرس ١٠٠٠٠٠ فيجب ان نكون مستعدين لمحاربة هذا الجيش اذا حاول منعنا من اجتياز البلجيك ولكسمبورج فنترك له ١١٢٠٠٠ لا اكثر الاَّ اذا انزل الانكليز جنوداً في انفرس . وجيشنا هذا الذي نسميه جيش المراقبة يجب ان يكون على تخوم البلجيك في بداءة الحملة وقبل نشوب الحرب فحالما تتوتَّر العلاقات السياسية وتنذر بالحرب يجمع هذا الجيش في معسكر تلدي كأن اجتماعه هناك امر عادي حينما يضطرب ميزان السياسة ومتى خرج من المعسكر في اليوم الثالث تأتي جنود غيره من الريف وتزحف في جهة ستافلوت ورشفور »

وقد حُرِّر هذا الترتيب الاخير حينما اتت المانيا بدافعها الكبيرة التي امكنت بها حصون لياج وناموز لكي لا تضطر الى اجتياز العراقيب التي في الطريق الاول بل تصل الى باريس بطريق اسهل واقصر

وواضح من ذلك ان خرق حرمة البلجيك كان امراً منويًّا من قبل حالما تدعو الحال الى اثارة الحرب الاوربية . وكانت المانيا تحسب انها تستطيع ان تنازل فرنسا وانكلترا بجيش يزيد على جيشها ٤٠٠٠٠٠ وذلك في الاسبوع الثاني من الحرب وقبلما تصم انكلترا على خوض غمارها او تشرع روسيا في التعبئة العامة فتكون مزيتها على فرنسا كبيرة جدًّا وترى فرنسا ان لا نجاة لها منها . ولكن المانيا اخطأت في تقديرها فالبلجيك ثارت لمحاربتها بدلاً من ان تلزم جانب الحياد والجنود الانكليزية دخلت فرنسا قبلما بلغتها الجنود الالمانية وقل عدد الجنود الالمانية بما تعرضت له من القتل مجازفةً وتمكنت روسيا من التقدم بجيشها قبلما فازت المانيا في فرنسا فوزاً يذكر . ومرَّت الشهور والحرب سجال او كاد الفوز يكون في جانب الحلفاء واستحكمت حلقات الضيق على المانيا حتى جعل شعبها يقتِّر على نفسه في المعيشة والمجاعة تتهدده وقضي على تجارته في المسكونة

وليس من غرضنا تفصيل ما جرى في هذه الحرب حتى الآن بل الالتفات الى تأثير مذهب المانيا هذا في العمران اذ جارتها فيه سائر الدول اي اذا لم يبقَ للعهود والمعاهدات شأن في المعاملات بل صار كل احد يحترم عهوده ما دام احترامها نافعاً له وينقضها اذا

رأى نفعاً في تقضبها ولو اضرّ تقضها بغيره فانهُ اذا جرى الناس كلهم هذا المجرى تقوضت دعائم العمران

لا مشاحة ان الانانية لازمة لكل حي يسعى لنفسه وان تنازع البقاء ناموس طبيعي عام. ولكن السعي للنفس وتنازع البقاء يكونان اوفى بالمراد اذا قام بهما المرء مشتركاً مع غيره منهما لو قام بهما منفرداً وحدهُ . فالبيت الذي يسعى كل اعضائه سعياً واحداً متعاضدين انجح من الذي يسعى اعضاؤهُ منفردين متخاذلين . وقس على ذلك القبيلة والمدينة والمملكة والممالك . هذا ما دام الرزق وافراً يكفي كل احد . ثم اذا قلّ الرزق حتى لا يكفي جماعة كبيرة نظر حينئذٍ في ما يلزم لبقاء الاصلح منها كما لو قلّ الماء في سفينة حتى لا يكفي الاّ نصف ركابها قبلما يصلون الى حيث يجدون ماء واذا اقتسموهُ كلهم على السواء ماتوا كلهم فانهم يلجأون حينئذٍ الى بقاء الاصلح منهم ولا لوم عليهم ولا تثريب . ولكن هذه الحال لا تقع الآن لامّة من الامم المتمدنة لان خيرات الارض كثيرة والرزق واسع والحاجة تفتق الحيلة . واضيق البلدان بسكانها لم يمت سكانها جوعاً بل احتالوا على استخراج رزقهم من التراب والماء والهواء . والمانيا نفسها التي تشكو من ضيق عطنها وقلة مستعمراتها تكاد تملك الارض برضى سكانها فمعامل الالمان ومتاجرهم في فرنسا وروسيا وانكلترا واميركا وكل البلدان تفوق معامل غيرهم من الامم بفضل التساهل والتعاون ومراعاة الحقوق العامة . ولو جرت فرنسا وروسيا وانكلترا واميركا والجكا على مذهب المانيا من نقض العهود والاستئثار بالرزق وتنازعها ولو في ما تريد اكتسابهُ منهنّ ولم يتعرضن لخيرات بلادها بشيء لما نالت ربع الثروة التي نالتها منذ عشرين سنة الى الآن . ولا شبهة ان استحلالها نقض العهود لا ينيلها منالاً بل يعود عليها بالوبال ومن المحتمل ان تنتج عن استحلالها هذا فائدة كبيرة لغيرها من نوع الانسان اذ يرى دول الارض مثالاً حسياً على الضرر الذي ينتج لكل دولة تنقض عهودها وتحامل على غيرها

والظاهر ان مذهب المانيا هذا مبنيٌّ على خطإٍ في فهم مذهب دارون الذي اساسهُ تنازع البقاء وبقاء الاصلح لان العقلاء يجدون للبقاء وبقاء الاصلح وسائل كثيرة غير قتل بعضهم بعضاً لاسيما وان قتلى الحروب اكثرهم من اصلح الناس للبقاء . فكأن الوسيلة التي اختارها علماء الالمان لبقائهم وتبسطهم في الارض هي الواسطة التي تقلل منهم الصالحين وتضيق عليهم بساط الارض

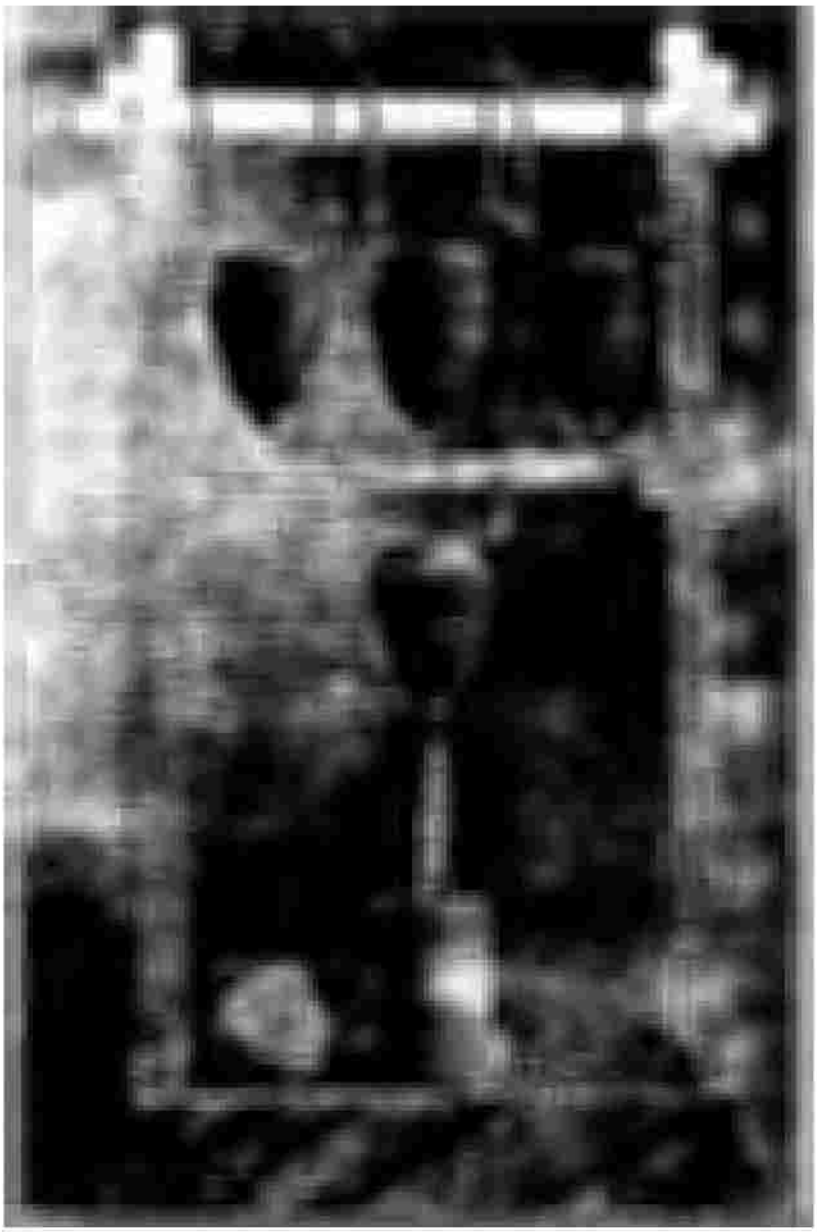

الساعة المائية

المقتطف صفحة ٢٦٧ مجلد ٤٦